معرفة الله

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

لا تكون الفضيلة فضيلة إلا إذا نبتت فى قلب له غاية سامية ومبادىء نبيلة لأنه بهذا يظهر أثرها وتؤتى أكلها . ولا خير فى فضيلة إلا إذا كان لها أثر تعرف به وتدرك وتحس ، وكل فضيلة لا أثر لها كانت كالذهب فى باطن الأرض لا ينتفع به . والفضائل دائما تدعو إلى سمو الغايات وكلما سمت الغايات كانت أدعى إلى تعشق الفضائل والسعى فى سبيل اكتسابها كما دلت على نبل صاحبها ونضوج فكره علو همته . وغايات الحياة كثيرة : منها المادى الذى لا يغرى العاقل ولا يجذب النابه ومنها المعنوى الذى يدل على نفسه بجمال جوهره وحسن مخبره وصدق معناه . وغاية الغايات فى هذه الدنيا « معرفة الله سبحانه وتعالى » فلا يصل إليها إلا كل مقدام أثبتت التجارب له صدق عزيمته ونقاء سريرته وقوة قريحته . لأنه أدرك أن الإنسان خلق فى الحياة لغاية نبيلة هى الوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى عن طريق العبادات والطاعات والتحلى بمكارم الأخلاق . ولأجل سمو هذه الغاية جعل الله طريقها محفوفا بالمكاره . فلا يصل إليها الا من وفقه الله وهداه ، ولقد نبه الله سبحانه وتعالى على معرفته وحث على ارتياد الطريق إليها . وأنها هى المقصد الأسمى فى هذه الحياة الغاصة بالمشاغل والظواهر فقال « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » أدرك هذه الغاية أفلاطون فأسس مدرسته عليها . وهى أول مدرسة نظامية بالمعنى المعروف وقال فى توضيح ذلك . الغرض من وجود الإنسان فى الحياة معرفة الله فيجب أن تسير التربية نحو هذا الهدف وكل تربية لا تهدف نحوه تربية ناقصة لا معنى لها : وتوصل بسبب ذلك إلى عالم المثل المعروف الذى طبقه وسار على نهجه كبار العلماء . ومن أجل هذه الغاية كانت أول عظة من لقمان لابنه تحمل هذا المعنى

« واذ قال لقمان لا بنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » فهذه العظة تحمل معنى توحيد الله وعظمته وتشير السبيل الى معرفته توضح بأسبقيتها مدى أهمية معرفة الله . وأنها الغاية المطلوبة فى هذه الحياة ومن أجل هذه الغاية تحمل موسى الأذى وخرج بقومه من مصر بعد أن ضاقت آمالهم ولم يستطيعوا أن يعبدوا الله فيها فيحققوا بذلك غايته التى خلقهم من أجلها وفرغ لهذه العبادة قلوبهم بأن كفاهم مئونة الرزق والاشتغال بجمعه فأنزل عليهم المن والسلوى . وجاء المسيح عليه السلام فلم يأل جهدا فى تحقيق هذه الغاية عن طريق المثل العليا التى وضعها أمام أتباعه ومريديه ، وقد كان المسيح فى ذاته وحده كافيا فى اثبات هذه الفكرة فى نفوس المريدين . ويظهر مدى ذلك فى وصيته حينما قال له رجل: « ياروح الله أوصنى فقال له : أن تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل تفكيرك » ولا حب لله من غير معرفة . وجاء بعد ذلك محمد صلى الله عليه وسلم فلم يخرج عن هذه الغاية وكشف لنا عن هذه الحقيقة الخالده بالوضوح نفسه الذى أخضع به عقول المعارضين والمشركين وبلور لنا هذه الفكره بمعانيها القدسية فى أمثلة عديدة تشعر الإنسان بأنه تافه حقير إذا لم يسع سعيا جديا فى سبيل معرفة الله وعبادته عبادة حقة جديرة بالرضا والقبول ويتضح لنا ذلك فى قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » والعبادة فسرها على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالمعرفة وليس معنى ذلك أن يترك الإنسان الدنيا ويعتزل العالم ويعيش فى صومعة ولكن المطلوب أن يدرك عبادة الله فى سعيه ويراقبه فى سيره ويراه محيطا به أينما سار وحل . ويعرف الله بآثاره الدالة عليه الناطقة بفضله . يقول أحد العارفين :

وأينما وليت لم أر غيره محيطا فلم يدركه عبد هداه

ويقول سليمان الحكيم . توكل على الله بكل قوتك وعلى فهمك لا تعتمد فى فى كل طرقك اعرفه وهو يقوم سبيلك . .

من ذلك نفهم أن الغاية التى أوجدنا من أجلها هى معرفته عن طريق الشرائع المختلفة أرسل بها رسله وأنبياءه التى أوجد فى كل معنى من معانى الحياة دليلا عليها وفى كل ذرة من ذرات الوجود شاهداً على وجوده فيها . وفى كل شىء له

آية . . تدل على أنه الواحد . ولكن أغفلتنا المظاهر عن أن نرى بدائع الحقائق ، وأذهلتنا الماديات عن أن ندرك سموالغايات . فكان حقيقاً أن يقول لنا ابن عطاء الله السكندرى . . اجتهادك فيما ضمن لك وتعضيدك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . وكان حقيقاً أن يعنينا الرسول صلى الله عليه وسلم يقوله . « ما بال أقوام يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم ولا يسعون فيما يدرك الا بالسعى من الجزاء الموفور والسعى المشكور والتجارة التى لاتبور » . وماكان أجدرنا بتدبر قول ابراهيم الخواص رضى الله عنه : « العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت » .

وبعد : فهذا طريق رسمه الله لمن أراد أن يكون ذاهمة عالية وقلب كبير وفكر واسع جمع شم الفضائل ، ومن وضع نصب عينيه غاية كهذه لا يهمه وعورة المسلك أو بعد الشقة أو طول الطريق .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم